مجالس العلوم العقلية والتجريبية عند الفاطميين

أدرك جُل الخلفاء الفاطميين بثاقب فكرهم أهمية مجالس العلماء، وفائدة ذلك، سواء على الصعيد الشخصي، أم على صعيد الخلافة، بوصفهم ولاة أمورها، فقد كان الخلفاء الفاطميون ممن التزموا بما حثت عليه السنة النبوية الطاهرة، فيما يتعلق بمجالسة أهل العلم، إذ وردت أحاديث كُثر تبين فضل تلك المجالس، وتشبهها بأعظم التشبيهات وأروعها، التي تشد العقل والقلب للمواظبة على حضور مجالس العلم، ومن ذلك قول سيد العلماء رسول الله(صلى الله عليه واله وسلم):"إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قيل :يا رسول الله: ما رياض الجنة، قال: مجالس العلماء" وبلا ريب فأن الرسول(صلى الله عليه واله وسلم) دعا المسلمين ووجههم إلى مجالسة العلماء ليستفيدوا فائدة لا تقدر بأغلى الأثمان، ولاسيما إذا ما كانت تلك المجالس عامرة بالجلساء الصالحين، وهم أرباب العلم والمعرفة، لذا فإن الخلفاء الفاطميين بما عرفوا، واشتهروا به من حبهم للعلم وشغفهم به، قد استوعبوا ضرورة الالتقاء بالعلماء، ومناقشتهم، والاستمتاع إلى ما يحملونه في ثنايا عقولهم، وصدورهم من العلم الذي فضلهم الله به، وفي الوقت نفسه وجدوا أن تلك المجالس كفيلة بإبراز مواهب الخلفاء العلمية، وإثبات حضورهم المعرفي المتميز ، فعقدوا المجالس العلمية المتنوعة، كما حضروا مجالس العلم العامة، التي كان يعقدها العلماء، بحضرة عدد وجمع غفير من طلاب العلم ومريديه ، وقد رعىٰ الخلفاء علماءهم في تلك المجالس بكل معاني الرعاية، وحرصوا أن ينطبق عليه قول أحد الحكماء: "خير الملوك من جالس أهل العلم ،ولذا فقد تعددت وتنوعت مجالس الخلفاء مع العلماء وشملت العلوم التالية:-

أولاً:علم الطب.....

حفلت الدولة الفاطمية بطائفة من أشهر الأطباء في تلك الفترة، حيث عنى الخلفاء الفاطميون بالطب وجالسوا الأطباء، وأغدقوا عليهم الأموال وأجزلوا لهم المنح، وقلدوهم المناصب العالية، وأصبح للأطباء منزلة رفيعة بين رجال البلاط، مما ساعد على تقدم دراسة الطب الذي أصبح يدرس نظرياً وعلمياً في(البيمارستانات) والتي تخرج منها جماعة من أطباء الباطنية والجراحين والكحالين أي الذين يعالجون أمراض العيون، وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة واللغات الأجنبية، وخاصة السريانية واليونانية بجانب إلمامه بالطب، ومارس بعض الخلفاء الفاطميين تحضير وصناعة بعض العقاقير الطبية منهم معرفة الخليفة المعز لدين الله بتلك الصنعة معتمداً على معرفة وميراث جده الخليفة الأول عبد الله المهدي في هذا المجال، ومن الأطباء الذين ظهروا في عهد الدولة الفاطمية في أفريقية أسرة العزار وهي أسرة يهودية، يقف على رأسهم موسى بن العازار الإسرائيلي وأولاده، فقد لازم موسى خدمة الخلفاء المهدي(٢٩٧-٣٢٢هـ/٩٠٩-٩٣٣م)والقائم بأمر الله (٣٢٢-٣٣٤هـ/٩٣٣-٩٤٥م)والمنصور بالله(٣٣٤-٣٤١هـ/٩٤٥-٩٥٢م)والمعز لدين الله ونال حضوة لديهم وجالسوه، وله مجموعة من المؤلفات الطبية منها بالعربية والأخرى بالعبرية، وكذلك برز في

العصر الفاطمي الطبيب(أعين بن أعين)الذي جالس الخليفة المعز لدين الله(٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٥م)وأشتهر بطب العيون، وكان طبيباً متميزاً في الديار المصرية في أيام العزيز بالله أيضاً، له من الكتب: كتاب(أمراض العين ومداواتها)

ثانياً: علمي الرياضيات والهندسة.....

من علماء الرياضيات والهندسة الذين عقدوا المجالس العلمية مع الخلفاء الفاطميين :(أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم)،ولد في البصرة عام٣٥٤هـ/٩٦٥م،ونشأ فيها وتلقى تعليمه فيها على يد أشهر علمائها، التي كانت تنافس حاضرة الخلافة العباسية بغداد في أتساع الحركة العلمية بها وكثرة علمائها في مختلف العلوم والفنون، وقد عبر أبن الهيثم عن آثره في علم الرياضيات في هذه العبارة فقال:" فما صنعته في العلوم الرياضية خمسة وعشرون كتاباً"، فقد سلك أبن الهيثم في أبحاثه الرياضية طرائق لم يسلكها المتقدمون وأساليب جديدة كل الجدة في البراهين، مما يدل على استقلال تفكيره وبُعد نظره وقوة إبداعه في الفن الرياضي وبرع أبن الهيثم في الهندسة أيضاً حيث أشار القفطي إلى ذلك بقوله: "أبو علي المهندس البصري نزيل مصر، صاحب التصنيف والتواليف في علم الهندسة، كان عالماً بهذا الشأن متقناً له، قيّماً بغوامضه ومعانيه، مشاركاً في علوم الأوائل، أخذ الناس عنه واستفاد و منه"، ومن الرياضيين الذين جالسوهم الخلفاء الفاطميين أيضاً:(رزق الله المنجم النخاس)له معرفة بعلم النجوم بعضها عن دراية وبعض عن تجربة، وهو شيخ أكبر المنجمين في مصر.

ثالثاً: علم الفلك

يعرف هذا العلم بأسماء مختلفة مثل علم الهيئة أو علم التنجيم أو الأفلاك، سمي علم الفلك خلال العصور الإسلامية بعلم النجوم وهو: "فرع من فروع العلم الطبيعي وهو علم بأصول الكواكب يعرف من خلالها أحوال الشمس والقمر وغيرها من النجوم" يعود علم التنجيم في خصائصه الرئيسية إلى البابليين الذين ظنوا أن الكواكب السبعة التي عدوا من ضمنها الشمس والقمر أيضاً دون الأرض، آلهة وبإمكانها البشرية استكشاف نياتها عن طريق مراقبة دقيقة لحركاتها وتبنى اليونان والرومان هذا الاعتقاد وأورثها إلى العالمين الإسلامي والغربي، وقد اهتم العرب بهذا العلم واستفادوا من معارف اليونان والفرس والكلدانيين وغيرهم في تطوير هذا العلم ،وقد كان لعلم الفلك كما كان لغيره من العلوم العقلية في العصور الوسطى أهمية في المشرق والمغرب الإسلامي على السواء حتى أن علماء الدين كانوا يولونه اهتماماً خاصاً بل أنهم كانوا ينصرفون إلى دراستهِ والتبصر فيه لأن الخلفاء والأمراء والسلاطين كانوا يبرمون أمورهم ولا يقدمون على خوض غمار الحرب دون الرجوع إلى آراء المنجمين وكانت الجيوش لا تسير إلى ميادين القتال إلا في الوقت الذي يقع عليه اختيار المنجمين.

ولقد كان لعلم النجوم التأثير الكبير في توجيه سياسة بعض الخلفاء والأمراء منذ العصر العباسي، وبعد ذلك فاق خلفاء الفاطميين بني العباس في الاعتماد على

التنجيم والمنجمين، ويعود ذلك لاعتماد الفكر الإسماعيلي على تقديس الخلفاء وإلصاق القدرات الخارقة بهم ومنها معرفة الغيب، فقد أختار الفاطميون(أبن حوشب)لرئاسة دعوتهم في اليمن، لأنهم عرفوا عن طريق النجوم أنه سيكون له شأن في نشر هذه الدعوة في تلك البلاد، ومن قصيدة الفهري التي قال فيها:

فعنـد الستِ و التسعين قَطعَ القوُل في العذرِ

يدلنا على عقيدة الإسماعيلية بأن دولتهم ستقوم في عام ست وتسعين ومائتين وكان لهذه العقيدة أثر كبير في انضواء كثير من الناس تحت لواء دعاة الإسماعيلية اهتم الخلفاء الفاطميين بالفلك والتنجيم، فقد بين أبن حماد أن للخلفاء الأوائل ميل شديد لهذه العلوم منذ قيام دولتهم في بلاد المغرب فنجد الخليفة عبد الله المهدي كان له بصر بعلم النجوم فقد بنىٰ عاصمته المهدية وفق حسابات فلكية.

وعرف عن المنصور ولعهُ بهذا العلم فقد كان عالماً بالنجوم ولكنه غير مؤمن بتأثيرها إذ ردد دائماً :"والله ما طلبنا هذا العلم إلا يدلنا عليه من توحيد الله جل ذكره وتأثير حكمته في منفعتهِ"

وذكر أبن حماد، أن الخلفاء المعز لدين الله والعزيز بالله والحاكم بأمر الله والحافظ لدين الله كانوا يرصدون النجوم لاستقراء ما وراءها من أحداث وعلى ما يبدو أن الخلفاء اهتموا برصد حركة النجوم والكواكب وهذا لا يعني لرجم الغيب ومعرفة المستقبل، بل لمعرفة السنين ومواقيت الليل والنهار أيضاً، فقد كان المعز لدين الله ماهراً في علوم النجوم وذكر أنه قال: "من نظر في النجامة ليعلم عدة السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار، وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكر...فقد أحسن وأصاب....

وفي رأي حول تسمية مدينة القاهرة ما ذكره أبن دقماق أن مدينة القاهرة التي بناها جوهر الصقلي سميت بهذا الاسم لأن أساسها شق على طلوع كوكب المريخ الذي يسمى(القاهر)وروي أن جوهر جمع في ذلك اليوم(المنجمين)وأمرهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس وطالعا لرمي حجارته، وكان القاهر هذا أسماً للمريخ عند هؤلاء المنجمين وقيل لما قدم الخليفة المعز لدين الله وأخبر بما حدث غير أسم المدينة وسماها القاهر

وفي عهد الخليفة المنصور بالله برز في هذا المجال منجم يهودي يدعى(أبو سهل دونش) ،اعتنق الإسلام ، وتعلم اللغة العربية، ،حيث درس الطب والفلك والفلسفة والحساب وبرع فيها، له مؤلفات عديدة في الطب والفلك ومنها:(في الفلك وحركة الكواكب) ومصنف كبير في الفلك قدمهُ إلى الخليفة المنصور بالله وكتاب(التلخيص في الأدوية).

وأمر الخليفة المعز لدين الله القاضي النعمان أن يضع له أسطرلآبا (وهي آلة فلكية لقياس بُعد الكواكب)من الفضة الخالصة، فأختار النعمان صانعاً ماهراً أجلسه في أحد أركان خزانة الكتب، فلما أتم صنعه، رفعهُ إلى المعز.

واهتم الحاكم بأمر الله بعلم النجوم ورصدها ولتحقيق هذه الغاية انشأ هذا الخليفة مرصداً بسفح جبل المقطم أطلق عليه(الرصد الحاكمي)حيث تمكن من أن يرصد كسوفين للشمس، كذلك ينسب إلى الخليفة الحاكم بأمر الله تأليفه طلسماً لولده الظاهر لإعزاز دين الله على أعداد بروج السماء، لحمايته وحماية الديار المصرية وصونها من الأعداء، أطلق عليه أسم (التحفة الشاهية في علم الإكسير) .

من هذا كله نستطيع أن ندرك مدى عناية الخلفاء الفاطميين بهذا اللون من العلم ولكنهم لم يكونوا بدعا في ذلك كله، فهم ليسوا أول من رصد النجوم وجعلوا لها رابطة بين الكواكب العلوية والعالم السفلي وتأثير حركات الكواكب في الأرض، فهذا كله قديم معروف قبل ظهور الإسلام، وبعد ظهور الإسلام أهتم بالتنجيم الخلفاء العباسين بالذات والذين أصبح للتنجيم شأن كبير عندهم، حقاً أن الخلفاء الفاطميين اهتموا بعلم التنجيم إلا أنهم لم ينظروا إلية كما يظهر من كتبهم إلا على أساس أنه علم مفيد لمعرفة الحساب والسنين والأوقات ووسيلة للاهتداء في البر والبحر

رابعاً: علم الكيمياء والنبات .....

تضمنت مجالس الخلفاء الفاطميين العلمية الاهتمام بعلم الكيمياء وبرز في هذا العلم:(بلمظفر بن محمود بن المعرف)الذي كان موصفاً بالذكاء والفطنة ومعرفة العلوم الطبيعية ويعد العالم المصري الوحيد في علم الكيمياء طوال العصر الفاطمي من بين أبرز العلماء الذين ظهروا في علم النبات في العصر الفاطمي الطبيب(أبو عبد الله محمد بن احمد سعيد التميمي)،حيث كان طبيباً وعالماً بالنبات والأعشاب

سادساً: علم الطبيعة- الفيزياء.....

أن علم الطبيعة هو علم نقله العرب عن اليونان بعد أن أضافوا إليه بعض الأمور المهمة، فنقلوا عنهم رأيهم في انكسار الضوء والجاذبية، كذلك عرفوا عنهم العديد من أنواع الموازين وغيرها من الأمور.

وقد عرفت الدولة الفاطمية العديد من العلماء الذين اختصوا وبرزوا في هذا العلم، ولعل أشهرهم:(أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم)الذي كان الأرفع شأناً والأعلى كعباً والأرسخ قدماً في علم الطبيعة.

قام أبن الهيثم بعدة بحوث في علم البصريات أو علم المناظر، وبحوث في الضوء ثم دور العين والأبصار وامتزاج الألوان وبعض الظواهر الفيزياوية المستندة على الضوء كالقوس قزح والفجر والشفق والهالة والبيت المظلم، ويعد كتاب(المناظر)أضخم ما صنفه أبن الهيثم في البصريات، وأنفس ما أنتجه العلماء العرب في موضوع الطبيعيات، وبرز أيضاً في علم الطبيعة في العصر الفاطمي (الخازن المزني)(ت:٤٣هـ/١٠٣٨م) الذي سكن الأندلس مدة ثم قدم إلى مصر وعاش فيها مدة وألف في علم الطبيعة عدة مؤلفات منها: كتاب (الفجر والشفق وكتاب البصريات.